غزو روسيا

تفشل فيه ثلاث دول في ثلاثة عصور

لادوار مرقص
من اعضاء المجمع العلمي

توطئة

أما الدول فهي أسوج وكانت يومئذ من دول أوربا العظمى لا دولة صغيرة كما هي اليوم وكانت جيوشها تحت قيادة ملكها البطل المغوار كارلوس الثاني عشر في أوائل القرن السابع عشر . وأما الدولة الثانية فهي فرنسا تحت قيادة امبراطورها الطائر الشهرة غازي مشارق الارض ومغاربها نابليون بونابرت الأول في أوائل القرن الثامن عشر . وأما الدولة الثالثة فهي ثانيا الكبرة بعد ضم النمسا اليها وزعيمها الاكبر الطاغية هتلر الذي أخضع واستعبد معظم الدول الاوروبية في اواسط القرن العشرين الحالي ولا تزال رحى الحرب فيها دائرة بين الفريقين حتى اليوم . ولكنها في مرحلتها الاخيرة ومصيرها الفشل التام الذي يهدد ثانيا النازية وأدلة فشلها تشتد وضوحاً يوماً بعد يوم . ورحم الله القائل :

ان الامور اذا بدت لزوالها فعلامة الادبار فيها تظهر

والذي أذكره في ما يلي من مجمل أخبار الغزوتين الاولى والثانية مأخوذ عن كاتبين يحسبان في المرتبة العليا من رجال الاقلام وأرباب الافهام وهما فولتير Voltaire والكونت دي سيجور Du Ségur وكلاهما فرنسي

اطلعت على فصل شائق دبجته يراعة الكاتب العبقري فولتير في وصف معركة بولتافا وهي المعركة الاخيرة الحاسمة التي وقعت بين الروس والاسوجيين ودارت فيها الدائرة على الجيش الاسوجي ولم تقم لاسوج بعدها قائمة . والمعركة تعرف بمعركة بولتافا باسم النهر الذي وقعت بجواره بإقليم أوكرانيا في جنوبي روسيا ومن أخصب أقاليمها وهي من المعارك العظيمة الممتازة في تاريخ الحروب ولا يزال الروس يعيّدون حيناً بعد حين لذكراها وتمجيد

الذين قاموا بها من قومهم وهم في هذا التمجيد معذورون بل محقون فان هذه المعركة فاقت ما قبلها وكان لها ما بعدها من نتائج السياسة والقوة والمجد بالنسبة الى الدولتين المتجاورتين روسيا وأسوج . معركة بولتافا قللت قتل الاسوجيين وخضدت شوكتهم وقللت أنظارهم وأفقدتهم جانباً كبيراً من مملكتهم وردت دولتهم من دول الطبقة الاولى الى دول الطبقة الثالثة . وكان أثرها في الروس عكس ذلك على خط مستقيم فقد رفعت شأنهم وأشربت نفوس العالمين هيبتهم ورهبتهم وفتحت أمامهم مجالاً واسعاً لازدياد البسطة والنفوذ واتمام الاصطلاحات العظيمة التي كانوا يسيرون في طريقها

ولكي يكون للقارىء صورة ذهنية صحيحة لوقائع تلك الايام ينبغي لنا أن ننبهه الى التفاوت العظيم بين حروب أيامنا الحاضرة وحروب ذلك العصر من جهة عدد الجيوش وأعدادها . فان حروب قرننا العشرين الحاضر تفوق الحروب القديمة أضعافاً مضاعفة لما أحدث في أيامنا من معدات ووسائل عسكرية وللزيادة الكبيرة التي حصلت لكل أمة بالنسبة الى عددها في القرون السابقة . فمن الصواب أو مما يجاور الصواب أن نعد كل الف جندي في عهد بطرس الاكبر الروسي وعدوه كارلوس الاسوجي تعادل بعشرة آلاف جندي في حربنا الحاضرة كما ان كل الف جندي في عهد نابليون الاول يعادل خمسة آلاف جندي في هذه الايام . فاذا قرأ القارىء مثلاً ان كارلوس الاسوجي زحف على روسيا بثلاثين الف جندي فليتصوَّر ان هذا الجيش هو بمثابة ثلاثمائة الف جندي في معارك أيامنا . وقس على ذلك نظائره

معركة بولتافا

قال ڤولتير : « وقعت معركة بولتافا الحاسمة في ٨ تموز (يوليو) من سنة ١٧٠٩ بين ملكين هما أشهر ملوك عصرهما الملك كارلوس الثاني عشر الاسوجي والامبراطور بطرس الاول الروسي . أما كارلوس فقد توجهت اليه أنظار العالم بانتصاراته الجلية على الروس مدة تسع سنوات متوالية . وأما بطرس فقد توجهت اليه أنظارهم بما بذله من الجهود والمساعي الجبارة في تلك السنوات التسع لانشاء جيش مدرب منظم مثل جيش أعدائه أولئك . كارلوس أحرز مجداً باهراً بفتوحاته وشدة بأسه تجتمع الخاطر والاهوال . وبطرس أحرز مجداً باهراً بادخال اصلاحات جمة على بلاده الواسعة وأمته الكبيرة وبكونه لا يتهيب الخطر ويهرب منه كما دعته الدواعي الى مقاساته وتجشمه ولكنه لا يتعمد البحث عنه والاصطلاء بناره عفواً صفواً كما كان يفعل كارلوس . كارلوس كان معتدلاً في معيشته وأحواله

الخصوصية وهو ممتلىء حمية وأريحية ونخوة لا يروقه إلاَّ المجد والعظمة وأما ما وراء ذلك من الفوائد فقلما يأبه لهُ . وأما بطرس فكان مفرطاً في معيشته وسائر خصوصياته إفراطاً عجيباً أثر تأثيراً سيئاً في بنيته وان كانت بنية جبار عنيد وأفضى الى تقصير أجله في الحياة. ولم يكن يقدم على أمر إلاَّ اذا أيقن من ورائهِ نفعاً محسوساً لأمته أو دولته . وأما ما وراء ذلك من أبهة ومجد واستطارة شهرة فهو عنده في المرتبة الثانية . كارلوس لقبهُ معاصروه بالملك الذي لا يقهر وهو لقب غير ثابت له فان انكساراً واحداً يصيبه ينبغي أن يسلبه هذا اللقب ويكذبهُ ويكذب الذين خلعوه عليه . وقد جرى ذلك فعلاً . وأما بطرس فقد لقبهُ معاصروه بطرس العظيم أو بطرس الأكبر وهو لقب لهُ ثابت لا يتزعزع لأنهُ غير مدين لهذا اللقب بانتصارات وفتوحات بل باصلاحات جمة تدارك بها شعبه وحكومته . وهي اصلاحات مدهشة خالدة الأثر لا تنكرها عليه أرض ولا سماء

« واذا أراد القارىء أن يحصل على صورة ذهنية واضحة عن معركة بولتاوا وموضعها فليتصوَّر نهر بولتاوا واقعاً في الشمال والمعسكر الاسوجي في الجنوب يميل الى الشرق وعتاده على مسافة ميل وراءه والنهر يجري بجوارهم من الشرق الى الغرب . أما القيصر الروسي فكان قد اجتاز النهر على مسافة فرسخ من جهة الغرب وجعل ينظم معسكره هناك . وعند بزوغ الفجر خرج الاسوجيون من خنادقهم ومعهم أربعة مدافع فقط . وأما بقية المدافع فتركت في المعسكر مع ثلاثة آلاف مقاتل وقد رابط أربعة آلاف آخرون عند العتاد ومن ثمَّ كان جيش الملك الاسوجي الزاحف واحداً وعشرين الف مقاتل بينهم ستة عشر الف أسوجي والباقون من حلفائهم وأنصارهم

« وكان من كبار قواد الجيش الاسوجي في ذلك اليوم رنشيلد وروس وليفنهوت وسبار وهملتون وورنبرغ وهو من أقارب الملك كارلوس وغيرهم من القواد ومعظمهم كانوا قد اشتركوا في معركة نارفا من معارك تلك الحرب الطويلة الأمد . ومعركة نارفا من أغرب المعارك في نتيجتها اذ انتصر فيها ثمانية آلاف مقاتل أسوجي على تسعين ألفاً من جنود الروس فكانوا يتذكرون ذلك النصر العظيم ويترنحون بحديثه ويفضون به الى الجنود لانهاض الهمم واضرام نار الحماسة والأمل . وهكذا كان فقد انتعشت قلوب الجيش الاسوجي بتلك الذكريات المجيدة وأخذوا يزحفون جميعهم على عدوهم زحف الآمن المطمئن الممتلىء حمية وثقة بنفسه

« وكان الملك كارلوس يقود تلك الحملة وكان صفة تقودها بطل وتتقدم جيش المشاة وقد أصابهُ من جيانته مهاجمة خيالة الروس فهمنوا وهكذا ابتدأت تلك المعركة في الساعة

الرابعة والنصف من صبيحة ذلك اليوم . وكانت خيالة الروس في الجانب الغربي الى ميمنة جيشهم وقد نظم القائدان الروسيان منزيكوف والكونت كولوفان فرسانهما وقسموهم الى فرق وكل فرقة تحميها مدافع كافية . فحمل القائد الاسوجي سليبنهاك برجاله على اولئك الفرسان حملة صادقة هائلة واستلحمهم . وقد عرف الخبراء العسكريون في ذلك العهد ان الصدمة الاولى الاسوجية لا تطاق ولا يقف شيء في وجهها . فاخترق الاسوجيون صفوف الخيالة الروس وأحدثوا فيها فجوات واسعة حتى كادت تتضعضع ولكن الامبراطور بطرس هب الى تدارك الحال وجمع شمل ما تفرق ومعهُ رجاله فأصيبت قبعته برصاصة ذهبت بها وقائده منزيكوف قتلت تحته ثلاثة جياد واستبشر الاسوجيون خيراً بتلك الحملة وصرخوا بأعلى أصواتهم النصر النصر . وأما ملكهم كارلوس فكان يعلم ان المعركة لم ينته أمرها ولم تعرف نتيجتها وكان قد ارسل من منتصف الليل الجنرال كروتز ومعهُ خمسة آلاف فارس لكي يهاجم جناح الجيش الروسي على حين يهاجم هو قلب ذلك الجيش . ولكن سوء الطالع خيم عليه فان الجنرال كروتز تاه هو ورجاله في تلك الفلوات ولم يظهر لهم أثر . وأما القيصر الروسي فبعد ما كاد يوقن بالهلاك من جراء تلك الصدمة وهولها تجلد وتمالك وأظهر منتهى الحزم والعزم حتى تمكن من لمّ شعث خيالته ثم هجم بهم هجوم الذئاب الجائعة على فرسان اسوج ولم يكونوا متمتعين بنجدة أخوانهم فرسان الجنرال كروتز مما سبقت الاشارة اليه فتضعضعوا . واخترق الروس صفوفهم وأسروا منهم في جملة من أسروه الجنرال سليبنهاك نفسه وهو أحد قوادهم الممتازين وكان اثنان وسبعون مدفعاً روسيًّا تصلي العدو ناراً حامية وحماً جهنمية ثم تحركت مشاة الروس وهاجموا مشاة الاسوجيين الذين يتودهم الملك كارلوس

« ثم اصدر القيصر بطرس أمره الى الجنرال منزيكوف بأن ينسحب هو ورجاله شطر نهر بولتاوا ويحول بين النهر والاسوجيين . فأنفذ منزيكوف امر مولاه بمنتهى السرعة والمهارة ولم يكتف بأن يقطع الخط على أعدائه فاصلاً بينهم وبين اخوانهم المعسكرين عند النهر بل تصدى ايضاً لفرقة عددها ثلاثة آلاف مقاتل من جيش اسوج الاحتياطي فطوّقها ثم مزقها شذر مذر . فاذا كان قد قام بهذا العمل من عند نفسه فروسيا مدينة له بخلاصها في ذلك اليوم الرهيب واذا كان القيصر قد أوعز به اليه فلا شك انهُ ملك عظيم يحسب من أفران وأكفاء عدوه كارلوس الثاني عشر

« ثم قام مشاة من الروس من مكانهم وزحفوا في السهل الذي أمامهم كما ان خيالة من الاسوجيين نهضوا من جهة اخرى وأمر كارلوس بتوسيع نطاق المعركة وجعلها عامة شاملة

وكان يساعده في تدابيره المارشال رتشيلد. فقسم الملك من بقي له من الجيش الى خطين المشاة في القلب والخيالة على الجناحين الايمن والايسر. ونظم القيصر الروسي جيشه على هذه الصورة تقريباً وكان له رجحان العدد والعتاد ولا سيما في المدافع. وكان بارود الاسوجيين لمدافعهم الاربعة عتى أهبة النفاد

وكان القيصر الروسي في وسط جيشه وهو يومئذٍ برتبة قائد الف اذ لم يشأ أن يتقلد الرتب العسكرية الا تدريجاً بحسب الاستحقاق الذي يراه له رؤساؤه فكان يخضع رسميًّا وعسكريًّا لقائد فرقته الجنرال كزيرمينوف في حركات الجيش المعتادة ولكنهُ باعتباره ملك البلاد وقيصرها المفدّى كان يجول بين صفوف الجنود راكباً جواداً ترقيًّا مطهماً أهداه اليهِ سلطان آل عثمان فيحض القواد والجنود على الصبر والاستبسال وعداً كل واحد بجزاء الخير وحسن المصير

« وعند الساعة التاسعة استأنفت المعركة شدتها وأصابت قنابل الروس الجوادين اللذين يقودان محفة الملك كارلوس فقضت عليهما فاستبدل بهما سواهما. وما لبثت القنابل الروسية ان تجدّد أوارها فأصابت المحفة نفسها فتحطمت وسقط الملك كارلوس عنها سقطة فظيعة كادت تذهب بحياته بعد ما كسرت إحدى ساقيه فأسرع اليهِ أربعة وعشرون مقاتلاً من جنده لكي يحموه وينقذوه فهلك منهم على الأثر واحد وعشرون رجلاً وسلم ثلاثة رجال ومعهم ملكهم مثخناً بجراحه . وعندئذٍ دبَّ الخور والرعب الى قلوب الاسوجيين فتضعضعوا وانضوى صفهم الأول الى الصف الثاني الذي وراءه ولكن الصف الثالث ولى الأدبار وما لبثت الهزيمة أن أصبحت عمومية . مع ان القوة الروسية التي كافحتهم مباشرةً واجبرتهم على هذا المصير لم تكن الا عشرة آلاف مقاتل . فما اعجاب ما كان أعظم الفرق بين عزّة اسوج سابقاً وذلها لاحقاً ، وبين تقصير الجيش الروسي في أمسهِ بمعركة نارفا وتبريزه في يومهِ بمعركة بولتافا !

« والذي يزعمهُ كتّاب الامة الاسوجية ان تلك المعركة الحاسمة ما كان قومهم ليخسروها لو لم يرتكبوا فيها أغلاطاً فادحة . فيرد عليهم ضباط جيشهم قائلين : ان الغلط الفادح الوحيد الذي ارتكبناه هو اننا خضنا غمار تلك المعركة ونحن على ما نحن عليهِ من ضعف العدد والعتاد بالنسبة الى عدونا . خضناها في مجاهل بلاده التي يعرفها هو شبراً شبراً ونحن نتلمسها تلمساً بالتخمين والتقدير . فلو أصغينا الى مشورة العقلاء من قوادنا بعدم التعرض لتلك المعركة أو تأجيل ميعادها ريثما نستتم شروطها ووسائلها لما حلت بنا ويلاتها . هذا ما يقوله ضباط اسوج وهو قرين الصواب ولا يقل صواباً عنهُ ان نلتفت الى العامل الاساسي في ذلك الخطأ

ذلك العامل هو نشوة الاسوجيين بخمرة انتصاراتهم السابقة على الروس ولا سيما في معركة نارفا بحيث ركبهم البطر والغرور ولم ينظروا بعين الفطنة والحزم الى قوة عدوهم فكان من أمرهم ما كان

« ومن الذين وقعوا أسرى بيد الروس في تلك المعركة الدوق ورتمبورغ والجنرال وتشيلد وكثير من القواد غيرهما . وأما العسكر الاسوجي القائم تجاه نهر بولتافا فقد استولى عليه الروس وغنموا ما فيه من ميرة وذخيرة ومعدات مما جعل حالة الجيش المنهزم في منتهى البؤس واليأس ، وقد تمكن الكونت بيار ومعهُ بضعة ضباط أن يفلتوا من ذلك المعسكر فهاموا على وجوههم وهم لا يدرون أي طريق يسلكون ولا عند أي غاية يقفون كما كانوا يتساءلون عن مصير ملكهم كارلوس بعد سقطته وانكساره فلا يعلمون من أمره شيئاً ثم قام أحدهم الكونت بيار وهو قائد الف وزعم انهُ يعرف طريقاً للنجى والأمن حيث يجدون شيئاً من أمتعتهم ومؤونتهم وطلب منهم أن يتبعوه فتبعوه ولكن تضعضع حواسه وحواسهم وعوامل الرعب في قلوبهم جميعاً وحيلولة سحب الدخان والغيوم دون ما يعرزهم من تبين الطريق وتميز الجهات خيبت آمالهم فتاهوا ثم لم يلبثوا أن وجدوا أنفسهم أمام قوة من أعدائهم الروس فاستسلموا اليهم في رمشة عين

« وأما الملك كارلوس فلم يشأ في أول الامر أن يشارك جيشه في الهزيمة ولكنهُ لم يكن قادراً على الدفاع وكان الى جانبه الجنرال بونياتوفسكي وصفيه قائد حرسه الخاص الكولونيل ستافلاس وهو رجل شديد الاخلاص للملك والتعلق به وقد برهن في عدة مواقف على ما لهُ من ثبات ورباطة جأش وحضور ذهن . فلما رأى تلك الحالة المشؤومة أمر رجلين من فطول حرسه الباقين بقربه فتقدما من الملك وأمسكاه من تحت ابطيه وأركباه جواداً قوياً فركب منجدلاً مع ما كان يقاسيه من الآلام المبرحة الناجمة عن جراحه

« وكان الجنرال بونياتوفسكي قائداً اكرانياً بغير قيادة وانما مهمته المشاركة في الرأي والمشورة ولكنهُ في تلك الحال الاستثنائية تحوّل الى قائد فعمي فأسرع في جمع شمل من بقربه من مقاتلة الاسوجيين فاجتمع له منهم خمسمائة رجل ما بين راجل وفارس وجندي وضابط فتولى تنظيمهم وقيادتهم وقد أشربت أرواحهم حماسة وحب تضحية حين رأوا ملكهم في ذلك الخطر المبين وتمكنوا من الوصول به الى مركز للعتاد الاسوجي بعد مسيرة ميل وبعدما اخترقوا قوة من الجند الروسي اعترضت طريقهم . وفي أثناء الطريق وكان العدو يطاردهم قتل جواد الملك فتقدم منهُ الكولونيل جيانا وكان محروحاً ودمه يسيل بغزارة فترجل عن جواده وقدمه للملك فأركبه عليه . ومحصل القول ان حوادث تلك المزيمة زادت القوم محنة

على محنة وويلاً على ويل ، ولم يكن لهم مندوحة من الهرب وقطع مسافة طويلة فلما بلغوا موضع العتاد الاسوجي وجدوا بين المعدات هناك مركبة للكونت بيار فأسرعوا الى أخذها وأركبوا الملك فيها عوضاً عن جواده ثم أخذوا في طريق نهر بورستين . ولم يكن الملك منذ أركبوه الجواد في أول انهزامه الى تلك الساعة قد نطق بكلمة واحدة فلما ركب المركبة وعمّ باستئناف السير مع رفاقه التفت الى بعضهم سائلاً : « ما الذي جرى للكونت بيار » فأجابوه : « أخذه الروس أسيراً ومعهُ أعوانه » فسألهم « وماذا جرى للجنرال رتشيلد والدوق ورتمبرغ » فأجابه الجنرال بونياتوفسكي « وقعا أيضاً أسيرين في قبضة الروس » فهزّ الملك كتفيه قائلاً « أخذهم الروس جميعهم ؟ فيا بنا الى الآتي » قال الملك ذلك بلهجة مرضية وملامح وجهه على حالها ولا يمكن أحداً يراه أن يظنهُ ذلك الرجل المكسور المقهور المثخن جراحاً

« وفي أثناء هربه مع أعوانه استولى الجيش الروسي على المدافع الاسوجية المنصوبة قرب نهر بولتافا وعلى ما هناك من الاعتدة المختلفة وأهمها الخزينة العسكرية وفيها مبلغ جسيم من النقود كان كارلوس قد غنمها من البولونيين والكسونيين حينما انتصر عليهم . وفقد المغلوبون في تلك المعركة ستة آلاف أسير وتسعة آلاف قتيل من الاسوجيين وممن حالفوهم من القوزاق وبقي في قيد الحياة مئتين وعشرين مئة عشر الف وجل ما بين أسوجيين وبولونيين وقوزاق . ووجههم جميعاً مدينة بورستين تحت قيادة الجنرال ليفنهوت . وبعد قليل تحطمت مركبة الملك من وعورة الطريق فأركبوه جواداً . ومما زاد الطين بلة ان الليل هجم عليهم فضلوا طريقهم وسط غابة كثيفة اعترضتهم وبلغ الاعياء من الملك مبلغاً لا يطاق وزادت آلام جراحه فأنزلوه واضطجع على ساق شجرة وكان هو ورفاقه هناك تحت خطر الأسر في كل لحظة لأن مطارديهم الروس كانوا يبحثون عنهم في كل جهة

« وفي غداة ١٠ تموز (يوليو) اصبحوا أمام نهر بورستين فلما رأى الاسوجيون الذين هناك ملكهم في قيد الحياة فرحوا به وتهللت وجوههم اذ كانوا يرجحون هلاكه ولكن سرعان ما عادوا الى الكآبة والغم حين شاهدوا ما هو فيه من الآلام والشقاء ولم يكن للهاربين بدّ من عبور النهر وأنى لهم ذلك والنهر كبير عظيم الخطر قوي التيار ولا جسر عليه ولم يكن لهم لأجل الدفاع عن أنفسهم حين يبلغهم العدو بل لو كان لهم البارود الكافي لما أجدهم نفعاً اذ لا طعام عندهم يمسك عليهم رمقهم وقد قضوا على القوى اليومين الأخيرين حتى خارت قواهم . وبعد البحث والتفكير وتقليب الامور على كل وجوهها اعتزموا عبور النهر معولين على خيولهم وقوتها وصلابتها اذا خاضت النهر متراصة . وأما الملك فكانت الحمى قد أخذت منهُ كل مأخذ وأفقدته حسه وتمييزه فنقلوه كأنهم ينقلون شيئاً جاداً ولو بقيت له بقية من

الادراك والتمييز لكان من الغريب الامكان ان يأمرهم بالتربص والانتظار للقاء العدو ومكافحته وهي مجازفة غريبة هائلة ولكنها غير بعيدة عن قائد مثل كارلوس الثاني عشر وعن جيش مثل جيشه الاسوجي . حملوا الملك الى مركب ضعيف وجدوه على ضفة النهر وأركبوا معهُ قائداً قوزاقيًّا من أحلافهم برتبة جنرال وهو الجنرال مازيبا وكان قد تمكن من حشد مبالغ من النقود في صناديق متينة قبل استيلاء الروس عليها فأنزلها معه الى المركب ولكنه لم يلبث ان أحسَّ بخطر الغرق لثقل الحمولة فرمى في عباب النهر ثلاثة أرباع تلك الصناديق بقصد تخفيف الحمولة واتقاء خطر الغرق فسلم هو والملك ومحارة المركب وأما فلول الجيش الاسوجي هناك فكانت ثلاثمائة خيال وجمهوراً من الشاة . أما الخيالة فخاضوا النهر متلاصقين بحيث كوَّنوا بتلاصقهم قوة عظيمة تحملت قوة التيار وتغلبت عليها فعبر معظمهم النهر سالمين حتى بلغوا ضفته المقابلة ولم يهلك من الفرسان الاَّ قليلون هم الذين كانوا في أطراف الموكب منحنين قليلاً عن قوة المزدحم فجرفهم التيار وهلكوا غرقاً كما غرق كل الشاة الذين سبحوا في النهر وراء الفرسان

« وبينما كان أولئك على تلك الحال هم وسائر فرقهم المنهزمة الهائمة على وجهها كان القائد الروسي الأعلى الجنرال منزيكوف يطارد فلولهم ومعهُ عشرة آلاف فارس وقد أردف كل فارس جنديًّا من المشاة وراءه . ولم يتعذر على الروس أن يعرفوا الطرق التي يسلكها المغلوبون في هزيمتهم بل استدلوا عليها بجثث قتلاهم وآثار دمائهم المنتشرة في تلك الفلوات على مسافات متفاوتة فلما اقترب منهم المنتصرون ارسل الجنرال منزيكوف رسولاً الى قائدهم الاعلى ليفنهوت يطالبهُ بالاستسلام والخضوع التام مع كل جيشه الباقي وعدده ستة عشر الف مقاتل فلم يرَ القائد الاسوجي بدًّا من النزول على هذا الحكم المرّ الاليم اذ لم يبق للأسوجيين بارقة أمل واحدة لا بالانتصار ولا بطول المدافعة . وكانت عوامل الشقاء من ضعف وجوع وانكسار وخاطر الطرق والهزيمة قد فعلت فعلها العجيب في تلك النفوس الجبارة التي لم تتعوَّد ذلاً ولا استكانة بل كان ستة عشر الف مقاتل اسوجي في السنوات السابقة أهلاً لان يقاوموا الامبراطورية الروسية من أقصاها الى أقصاها مع أمل راجح بالانتصار استناداً الى المعارك التي دارت رحاها بين الدولتين قبل معركة بولتافا . ومن ثمَّ أرسل القائد ليفنهوت اربعة قواد وكل منهم برتبة جنرال الى القائد المنتصر منزيكوف يجيبونهُ بالايجاب الى ما طلب ويعقدون بين الفريقين كتابة الشروط المتفق عليها وهكذا تمَّ الصلح

« ولما تدانى الفريقان والفريق الاسوجي متأهب للخضوع والتسليم على الصورة التي فرضها عليهم قاهروهم اشمأزت نفس الكولونيل الاسوجي تروتفير اي اشمئزاز من ذلك الهوان وأراد المقاومة ورجاله آملين ان يحذو غيرهم من رفاقهم حذوهم ثم هموا باستئناف القتال فلحظ منهم ذلك قائدهم الأعلى ليفنهوت فصدهم عنهُ بالحسنى وقوة الاقناع فكفوا وشاركوا الباقين في تسليمهم

« وبعد قليل تقدم ستة عشر الف جندي اسوجي وفي مقدمة كل كتيبة قوادها وضباطها ووضعوا اسلحتهم بالتدريج عند قدمي الجنرال مزيكوف وكان ثلاثون الف مقاتل روسي منذ تسع سنوات على اثر انكسارهم في معركة نارفا قد فعلوا هذا الفعل ملقين أسلحتهم عند قدمي الملك كارلوس وبعد استسلامهم أطلق الملك سلاحهم مظهراً انهُ لا يخشاهم ولا يهمهُ رجوعهم الى محاربته . واما الامبراطور بطرس الاكبر فلم يفعل فعله بل احتفظ قائده مزيكوف بحسب أمره بأسراه من الاسوجيين وحلفائهم ريثما تتم جميع مظاهر الصلح وتعود مياه السلم الى مجراها

الى هنا انتهى الفصل الذي تولينا نقله وتعريبه عن الكاتب الفرنسوي فولتير . وقبل الخروج من هذا الموضوع لا بأس ان نورد مرويات يسيرة بقيت في محفوظنا عن ذينك العاهلين كارلوس الثاني عشر وبطرس الاول . فقد زعم بعض الرواة ان جماعة من خواص الملك كارلوس تفاوضوا في حضرته ذات يوم أحاديث مختلفة حتى افضوا الى حديث الموسيقى وأخذ كل منهم يذكر اللحن الموسيقي الذي يختاره على سواه من الالحان . فأنصت الملك الى كلامهم حتى فرغوا منهُ فقال لهم : « أما انا فأطيب الالحان عندي وأدعاها الى الطرب لعلمة المدافع في معركة حامية الوطيس » . ولم يكن في ما قاله مبالغاً ولا متصنعاً استناداً الى ما عرف عنه من ولوعه بالحروب والغارات . ومما يؤثر عن وقائه وكرم اخلاقه مع قوة عزيمته انهُ ذات يوم كرع من الخمر المعتقة اكثر مما تعوَّد فرأته جدتهُ على تلك الحال وهي التي ربتهُ ووقفت حياتها لاجله وكان هو بارًّا بها الى الدرجة القصوى فساءتها منه هذه البادرة وعاتبتهُ عليها فأغلظ لها الجواب وأهانها بلهجة انتهار فسكتت وعادت الى مقصورتها مغمومة ودخل هو مقصورته وبات ليلته وعند ما اصبح لم يتذكر شيئاً مما جرى الليلة البارحة وانتظر جدته ان توافيه بحسب جاري عادتها لكي تتناول معهُ طعام الصباح وتتأنس بحديثه هنيهةً ثم تقبلهُ وتزوده بدعائها قبل انصرافه الى عمله في دار الحكومة . انتظر دخول جدته وطال انتظارها عنهُ طويلاً واستغرب تخلفها وسأل الخدم الذين حواليه أهي منحرفة الصحة فأجابوه سلباً فقال ولماذا لم تأتني فلزموا الصمت وبعد ما ألحَّ في السؤال تجرأ رئيسهم وهو شيخ وقور على ان يفضي الى الملك في أسلوب لطيف بما جرى منهُ البارحة فاحمرَّ وجهه خجلاً وأطرق مفكراً بعد ما صرف الخدم ثم أترع كأساً من الخمر وحملها ودخل بها على جدته وبعد ما حيَّاها قال لها ما مؤداه : لعلني يا جدتي العزيزة ما جرى مني ازاءك الليلة البارحة في ساعة لم أكن فيها أملك شعوري وصوابي والذي ساءني من هذه البادرة الجائرة أعظم من الذي ساءك وهاءنذا جئتك وبيدي كأس خمر وكل ما عندي من الاعتذار

والاستغفار اني أشرب هذه الكأس على حبك وطاعتك واعداً إياك أن تكون آخر كأس أشربها في بقية حياتي . أفلا يرضيك مني هذا الاعتراف وهذا التكفير عن زلتي تلك يا جدتي العزيزة — فأشرق وجهها وابتسمت وقالت له : « بلى بلى يا ولدي وحبيب قلبي » فشرب كأسه وقبل جدته وقبلته وأقام بقربها نصف ساعة ثم زودته بدعائها وانصرف الى عمله

وأما عدوه القيصر الروسي بطرس الأكبر فما يروى عنهُ انهُ في أثناء الحرب التي دامت بينهما تسع سنوات كان يقوم بتجهيزات تلك الحرب الضروس وبتدريب جيشه في خلل من الوقت على نظام فني جديد عن يد قواد أوربيين ماهرين استقدمهم واستخدمهم لهذه الغاية ولم يكن الجيش الروسي يعرف نظاماً ولا ترتيباً ولا خبرة لهُ في استعمال الأسلحة الحديثة مما جعلهُ ينكسر في معظم معاركه تلك الحرب ولم تفده كثيراً شجاعته وبسالته الفطرية . وكلما وصل الى القيصر خبر انكسار جنده في معركة كان يتجلد ويقول : « ستتحول الحال وتأتي نوبتنا في الانتصار ذات يوم » وقد رأى القارىء كيف صدقت معركة پولتافا حدسه وحققت آماله . ولما انكسر الروس انكسارهم الشنيع في معركة نارفا قطب بطرس جبينه وقال لرجال حاشيته : « ان جارنا كارلوس يريد أن يجعل نفسه اسكندر المكدوني . وقد يكون له ذلك ولكن هيهات أن يجعلني أمامه داريوس الفارسي » وقد أشار بكلماته تلك الى انتصارات الاسكندر المتعددة على داريوس بجيوش ومعدات دون جيوش عدوه ومعداته . وقد تم انتصاره عليه نهائياً في معركة اربل من أعمال ما بين النهرين . ومما يحكى عن بطرس الأكبر انهُ بعد انتهاء الحرب بينه وبين كارلوس أقام في قصره وليمة شائقة دعا اليها كبار القواد من جيشه وكبار القوَّاد من أسراء الاسوجيين . وعند افتتاح الوليمة تناول كأس خمر وقال : « اني أشرب هذه الكأس نخب الرجال الذين علمونا الحرب » ثم شرب كأسه . فقام أحد القواد الاسوجيين وسأله : « ومن الذين علموكم الحرب يا صاحب الجلالة » فأجابه : « أنتم الاسوجيين علمتونا الحرب وأسرارها ومكايدها » قال الاسوجي : « اسمح لي اذن يا صاحب الجلالة ان أقول لكم انكم ناكرو الجميل » قال القيصر : « وكيف ذلك » قال : « لأنكم لا تزالون تحتفظون بأساتذتكم ومعلميكم هؤلاء أسرى بين أيديكم وتسومونهم عذاباً أليماً بانفصالهم عن أوطانهم وأولادهم وأهلهم » فمالت في عيني الامبراطور هذه الجرأة وهذه النكتة حتى ضحك مقهقهاً وقال : « لا بأس عليك وعلى رفاقك ستعودون غداً ما يسركم » وفي اليوم الثاني أمر باطلاق أسراه من ضباط الاسوجيين وأمرهم فانصرفوا الى بلادهم تحفهم مواكب الكرامة

نكتفي بهذا القدر من أخبار الغزوة الاسوجية في روسيا وفشلها وما يتعلق بأهلي السويد المتحاربين